المحاضرة الرابعة: موضوعات الشعر الصوفي

تنوعت موضوعات الأدب الصوفي وتفردّت عن موضوعات الادب العام، وكانت في مجملها مرتبطة بالروح والوجود أي بالمشاعر الداخلية والرغبات العميقة الغاية من ذلك استكشاف العلاقة بين الانسان والكون وبين الخلق والخالق.

من أهم الموضوعات التي برزت في كتابات الشعراء المتصوفة نجد شعر الخمريات الصوفية، الحب الإلاهي، الفناء والمشاهدة، المدائح النبوية.....

1. **الحب الإلاهي:** هو حالة من الحب والهيام لله تعالى تتجاوز حدود العقل والفهم وتصل إلى مقامات روحية عالية، وهو أحد الوسائل للظفر بالجنة الروحية، يؤمن أصحابه بأن حب الله كاف في الوصول إلى نعمة الإخلاص وتظهر أهمية هذه العاطفة السامية حين ننظر أثرها في الأدب.

وقف الصوفية في تعبيرهم عن الحب الإلاهي موقفين مختلفين: موقف المنشئين وموقف المنشدين، والمنشئون هم الأدباء الكبار الذين استطاعوا قرض الشعر في التشوق إلى الذات الإلاهية، أما المنشدون فهم الذين عجزوا عن النظم ولكن لم يعجزوا عن تحويل الأشياء الحسيّة إلى معان روحيّة فكان شعراء النسيب ملاذهم حين يغنون.

يرتكز الحب الإلاهي عند المتصوفة على أركان ضرورية تتمثل في:

- الإخلاص: أن يكون الحب لله وحده دون شريك
- الشوق: الرغبة الملحة في لقاء الله والوصال به
- الوجد: حالة من الانسجام والانفعال الروحي الشديد
- الفناء: ذوبان المحب في محبوبه، وفقدان الشعور بالذات

ومن الشواهد عن موضوع الحب الإلاهي نذكر أبيات للأمير عبد القادر يعبر فيها عن الشوق الدفين للذات الإلاهية والرغبة الملحة في الوصال فيقول:

كنت قبل اليوم صبـا أسأل المحبوب ميـــلا
فأزال الستر عنـــــي فبدا لي الفصل وصلا
زادني القرب احتراقــا فأنا بالوصل أصلـــــى

في هذه الأبيات يعبر الشاعر عن شوقه لله وحالة المعاناة التي يعيشها بحثا عن الوصل، وهذا النموذج يظهر تقليد الشاعر وكل الشعراء الجزائريين لتجربة الشعر عند المتصوفة السابقين من حيث الأسلوب والمواضيع دون أي تجديد.

2. **<u>شعر الخمريات</u>:**

موضوع الخمريات أو وصف الخمر ظهر منذ العصر الجاهلي واكتملت ملامحه في العصر العباسي نتيجة التغيرات التي طرأت على روح العصر وشعر الخمريات الصوفي مستمد من هذه الروح فقد استلهم الشعراء المتصوفة صوره وأساليبه وأخيلته دون التطرق لما يصاحبه من مجون وإباحية، ومن الألفاظ التي سيطرة على شعرهم لفظ السكر الذي يقابله الصحو ولفظ البسط المقابل للفظ القبض، والخمرة المقصودة عند المتصوفة ليست مادية فيها الأكدار والأدران بل هي خمرة روحية تنطوي على النشوة التي يشعر بها المتعبد في حضرة الإله، وفي وصفها يقول الأمير عبد القادر:

فلا غول فيها لا ولا عنها نزفة وليس لها برد وليس لها حـــرّ
ولا هو بعد المزج بأصفر فاقع ولا هو قبل المزج قان محمـــر
معتقة من قبل كسرى مصونـة وما ضمها دن ولا نالها عصر

هذه الأبيات تعطي للخمرة أوصافا كمالية نقلت من عالم الأرض إلى عالم السماء، وهي بعيدة كلّ البعد عن أوصاف الخمرة الخاصة بالسكارى.

3. **<u>موضوع الفناء والمشاهدة</u>:**

المقصود بالمشاهدة هو حضور الحق وهي آخر مرحلة تسمو بالمتصوف إلى الفناء والكشف يتم في لحظة خاطفة وومضة سريعة مفاجئة، والفناء هو زوال العائق وإمحاء الحجاب وبالفناء

يفقد الوجود قيوده وتحديداته ويعود إلى أصله التحديد واللاتعين، وبه أي الفناء يتم التطابق بين الحالة الذاتية للعارف والحالة الموضوعية للعالم المعروف.

والفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة يقابله البقاء وهو قيام الأوصاف المحمودة، إذن فغاية المتصوف هي الشعور بلذة الفناء في الذات الإلاهية، ومشاهدتهم للملكوت بعين اليقين وببصر من حديد وفي هذا الوصف يقول الأمير عبد القادر:

أمطنا الحجاب فانمحى غيهب السوى وزال أنا وأنت وهو فلا لبـــس
ولم يبق غيرنا وما كان غيرنـــا أنا الساقي والسقي والخمر والكأس
تجمعت الأضداد في وإننـــــي أنا الواحد والكثير والنوع والجنس
ففارق وجود النفس تظفر بالمنـــى وزايل ضلال العقل إذ أنّه رجـــس

وفي هذه الأبيات دعوة إلى التسليم بالحقيقة المبرهن عليها، والمتوصل إليها بالتفكير والمنطق وإلغاء ما سواها ممّا لا يطاله عقل.

4. **نزعة الشك وإبغاض العقل:**

ينطلق المتصوف من الشك للوصول إلى اليقين، فهو الطريق إلى المعرفة عنده للوصول إلى الله والفناء فيه، وفي هذا الموضع يقول الأمير عبد القادر:

فهل أنا موجود وهل أنا معدوم وهل أنا ثابت وهل أنا منفـــي
وهل أنا في قيد وهل أنا مطلـق ولست سماويا ولا أنـا أرضـــي
وهل أنا ذا حق وهل أنا ذا خلق وهل عالمي غيب أو أني شاهدي

5. **شعر الكرامات:**

يشكل هذا النوع جزءا هاما في الأدب الصوفي؛ فهو يعكس تجربة الصوفية العميقة مع الله ومع أوليائه الصالحين، والمقصود بالكرامات هو الظواهر الخارقة التي تحدث مع أولياء الله الصالحين لما لهم من علو مكانتهم الروحية.

هذا النوع من الشعر قلّ ما نجده عند المتصوفة الجزائريين، وإن وجد فهو يندرج ضمن ما يسمى بالشعر الشعبي أو الشعر الزجل ومثال ذلك ما نجده في أشعار المتصوف لخضر بن خلوف الذي وصف زيارته لقبر أبي مدين التلمساني والتبرك به فيقول:

آه يا سعدي وفرحتي

من بومدين الغوث جبت الأمانة

من بعد خمسين عام وأنا نستنى، سعيت بروحي وراحتي

محمد الفضيل مفتاح الجنة

أحمد روحي وراحتي

6. **<u>المدائح النبوية</u>:**

يهدف هذا الفن الأدبي إلى الثناء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكريم صفاته العظيمة وأفعاله النبيلة، وفي الأدب الصوفي زاد الإبداع فيه حيث تجسدت أسمى معاني الحب والولاء للنبي محمد.

ما يميز هذا النوع عند المتصوفة هو أنه لا يقتصر على ذكر صفات النبي الظاهرة وإنما يتعمق في المعاني الباطنية ويستلهم من سيرته العطرة دروسا في السلوك والتصوف، إلى جانب تميزه بالعاطفة الجياشة والحب الشديد واللهفة إلى لقائه، وهذا بتوظيف الصور البديعية والرمز والتجسيد، وهو ما نلحظه في الأبيات التي وصف فيها الشاعر محمد العقبي النبي صلى الله عليه وسلم وإبداعه في التصوير البياني حيث يقول:

قد جاء والدنيا عجوز غابر فغدت زليخا في الأذيال
عن نفسه قد راودته وأنه لربه عنها في اشتغال